بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي ضربَ على الباطل وحشة، حتى نفر منه أهلُه، وما أنِسوا به لحظة، الحمد لله الذي سنّ التدافع، وجعل في النفوس عن الشر وازعًا، ووضع فيها لحب الخير دافعًا، فلا يأتي مبطِلٌ معذورًا، يومَ يُقال: «ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورًا..»، فالحمد بعد الحمد لله!

وأشهد ألّا إلٰه إلا الله وحده، أحيا النفوس المَواتَ بوحيه، وشفى القلوب العليلة بآياته، تفرّد بالملك، وله الخلق والأمر، وكلُّ يومٍ هو في شأن، بكرمه أنعمَ على عباده فلم يحصوا لنعمائه عدًّا، وبفضله غفر للتائبين وإن جاءوا شيئًا إدًّا، فانظر إلى آثار رحمة الله!

وأشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله، أرسله ربنا بالهدى ودين الحق، وأظهره على الدين كله، ولم يقبضه حتى أقام الملة العوجاء، ففتح به أعينًا عميًا، وآذانًا صمًّا، فما أشقى من أعرض

عن هديه، واحتذى على غير نهجه، يشقى في الواضحات بعقله، ما أشقاه!

أما بعدُ:

إنّ الكلمةَ الصادقةَ تستمد روحها قبسًا من نفسِ صاحبِها، فيغدو الشبه بينهما كشبه الأبناء بالآباء، ولقد قام هذا الكتابُ عندي كالبرهان المستقلِّ على هذه الحقيقة، فإني أصدقكم القولَ أنّي بذلتُ وُسعي أن أستودعَ هذا الكتاب صيحةَ النذير، فغلبتني عليه شفقةُ الناصح، واجتهدتُ أن أبثَّه نبرةَ الساخر من عبثية الإلحاد، فَسَرَت فيه روحُ الحريص على دعوةِ الملحدين، ولم تُغْنِ كلماتٌ حاولتُ وضعَها هنا أو هناك شيئًا، وكيف تغني والرُّزءُ في هؤلاء شديد، قومٌ اختلت المعاييرُ عندهم، فتاهت في الواضحاتِ عقولُهم، يحسبون أنهم يُحسنون صُنعًا، ولا يُفيقون حتى يَروا العذابَ الأليم؟!

ولو قيل لي اجمع الإلحاد في كلمةٍ واحدة، لا يجاوز وصفُه رسمها، ولا تندّ حقيقتُه عن حرفها، لقلت «التّوهم»! ولو تمثّل «العدمُ» غرضًا يُطلب، وأملًا يُرتجى تحصيله، لكان العدمُ هو غاية الملحد من هذه الحياة، ينطلقون من وهمٍ معدوم، ويطمعون في عدمٍ متوهم، وإنّي لأخاطب فيهم بهذا الكتاب لحظة، لحظةً يخلو فيها المرء بنفسه، متخليًا عن شهوات النفس ونزغاتها، مستدعيًا ميزان القسط، منتهجًا الإنصاف، متخلقًا بالعدل، لا يجرمنّه شنآن قومٍ على أن يظلم.. فتغدو تلك اللحظة

ميلاد إنسانٍ آخر، وكم ميتٍ خرج من ثناياه حيّ!

وقد قسّمت هذا الكتاب قسمين، يتناول القسم الأول منه موقف الإلحاد من الطبيعة والعلم الطبيعي، ذلك الموقف الذي يعده الملحد دستورًا لإلحاده، وفرقانًا يعرّف به عن حاله، أبيّن في هذا القسم تناقض الملحد في علاقته بالطبيعة، والعداء الذي بينه وبينها وإن زعم أنّها أمّه، وقد وقع ذلك في أربع مقالات، تبدأ بمقال «أمنا الطبيعة.. أليس كذلك؟!» وتنتهي بمقال «أفتني!»، ثمّ أعقب بنقض موقف الملحد من العلم الطبيعي في اثنتي عشرة مقالة، نقضًا مصحوبًا ببيان طريقة العلم الطبيعي، متبوعًا ببيان أنّ علاقة الملحد بالعلم الطبيعي علاقةٌ نفسيةٌ روحانيةٌ، وليست علاقةً علميةً كما يدّعي ويزعم!

والأفكار الرئيسة التي تناولت نقضها في علاقة الملحد بالعلم الطبيعي تتلخص في بيان اشتمال العلم الطبيعي على الغيبيات والمسلّمات والقضايا الفلسفية على عكس ما يتوهمه الملحد وسميته «التوهم!»، ثم بيان الدور الذي يلعبه العنصر البشري في طريقة العلم الطبيعي وسميته «ثقةٌ غير متبادلة!»، يعقب ذلك مقالٌ عن معنى الإجماع في العلم الطبيعي ومباحثه، وحجيته وكيفية الوقوف عليه والفرق بينه وبين الإجماع في الشرع، وسميت هذا المقال «وأجمعوا..!»، يتلو ذلك مقالٌ يبيّن القصور الذاتي الملازم للعلم الطبيعي وعدم كفايته وسميته «قاصر..!»، ثمّ مقالٌ عن معنى النظرية العلمية وقيمتها وصفاتها مع تطبيقاتٍ على بعض النظريات التي يكثر الملحدون من الاستدلال بها وسميته

«نظرية..!»، وآخر الأفكار كانت بخصوص الفرق بين العلم الطبيعي والمذهب الطبيعي المادي، والفرق بين دائرة الدين ودائرة العلم الطبيعي، وحقيقة العلاقة بين هاتين الدائرتين، وقواعد درء التعارض بين النصوص الشرعية والعلم الطبيعي، مع تطبيق على بعض الأمثلة المشتهرة على ألسنة الملحدين، وسميته «الدائرتان»! ويعقب كل مقالٍ من هذه المقالات الستة مقالٌ يتناول العلاقة النفسية بين الملحد والعلم الطبيعي، «الخندق!» بعد «التوهم»، و«بمكيالين!» بعد «ثقةٌ غير متبادلة!»، و«نفسٌ خائنة..!» بعد «وأجمعوا..!»، و«تناقض!» بعد «قاصر!»، و«علاقةٌ عاطفية..!» بعد «نظرية!»، و«علمٌ بلا عمل!» بعد «الدائرتان!».

أما القسم الثاني من الكتاب فهو يعرض موقف الإلحاد من الموت والانتحار، والمعنى من الوجود والغاية من الحياة، يتناول البؤس الذي ينبغي أن يملأ حياة الملحد، والخواء الذي يستشعره في شأنه كله، والموت الذي يجب أن ينغص عليه الالتذاذ بحياته، والانتحار المستساغ في فلسفة إلحاده، وقد وقع ذلك القسم في أربع عشرة مقالة، وطريقتي في هذه المقالات أنّها أزواج، مقالةٌ يطغى عليها الأسلوب العلمي يكثر فيها التقرير والاستشهاد، تعقبها مقالةٌ يغلبها الطابع الأدبي، وكذلك في المقالات التي تتناول الموقف من الطبيعة والعلم الطبيعي، أبدأ بمقالةٍ يكثر فيها التفصيل والتقرير والاستشهاد وبيان طريقة العلم الطبيعي ونقض موقف الملحد منها، ثم أثنّي بمقالةٍ تشبه مقالات الأدباء تتناول العلاقة النفسية بين الملحد والعلم الطبيعي.

وغايتي من عرض الكتاب على هذه الصورة الجديدة الغريبة، بمقالةٍ يطغى عليها الأسلوب العلمي ثم مقالةٍ يغلبها الطابع الأدبي.. وهكذا، غايتي أن أدخُل على نفس القارئ من كل باب، وأن نطوف سويًّا نطرق سبيل العقل تارة وندق باب القلب تارة، غايتي أن يكون الكتاب مناسبًا لباحثٍ وملحدٍ ومتشككٍ وطالبٍ لليقين، غايتي أن أبذل وسعي عسى أن يتقبله الله تعالى فينفع به سائلًا، ويرشد به حائرًا، ويدل به عليه! والله أسأل أن يكتب له القبول في الأرض، وأن يجعله خالصًا وصوابًا!

وكتبه:
حسام الدين حامد
١٨ ـ ٢ ـ ٢٠١٥